البناء العلمى
المرحلة الثانية
الفصل الدراسى الأول
تفسير جزء تبارك
د. عبدالعزيز السدحان

الدرس الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

تابع تفسير سورة الملك.

- وقد ذكر بعض أهل التَّفسير أنَّ مِن أسباب تسميتها بـ"سورة الملك" يرجع إلى أنَّ فيها ما يقتضيه الملك من تدبير الأمور، وتوزيع الأرزاق، وحسن التصرف، والعدل في النَّاس، وهذه كلها من مقتضيات المُلك.
- بعض المفسرين ربَط بين سورة التحريم السابقة لهذه السُّورة وبين سورة تبارك، هذا الرَّبطُ أنكره بعضُ أهل العلم، وقالوا: إنَّ تكلُّف بعض المفسِّرين في الرَّبط بين آخر السُّورة وأول السُّورة التي تليها لأنهَّ ليس مِن هَدي السلف الصالح.

❖ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

- السمع: سماع النصوص، والعقل: الفَهْم،فهم سمعوا لكن يسمعوا سمعَ الإجابة، ولم يُعمِلوا عُقولهم فيما يَنفعهم؛ لأنَّ الهوى حَكَمَهُم، ولهذا أعطى الله الإنسان العقل ليُميِّز به، ويَعقله عمَّا لا ينبغي.

❖ ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 11]،

- يعلمون علم اليقين أنَّهم هم الذين أضلُّوا أنفسهم، ولو ما اعترفوا فقرائن الحال والمقال تدلُّ على أفعالهم، لكنَّهم لما غُلِّقت عليهم الأبواب، وقامت عليهم الحجَّة، واستبانت المحجَّة، لم يكن لهم العذر ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

❖ ثم قال ربنا -عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: 12].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ . الخشية مِن أعظم أنواع العبادة ،وقد جاء عن الحسن البصري -رحمه الله تعالى- أنه قال: الخشيةُ العلم، فمن كان بالله أعلم كان له أرجى، وله أحب، ومنه أخوف، وأكثر حسنَ ظنٍّ به من غيره.

فالعلمُ الخشية، ولهذا قال هنا: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ في الشهادة -أمام النَّاس- قد يمتنع الإنسان عن فعل المعصية من أجل النَّاس، قد يدفعه إلى فعل الطاعة ثناءُ النَّاس، أمَّا في الغَيب إذا كان خاليًا بنفسه، فالغالب والأصل أنَّه يتعبَّد الله مخلصًا له، لا يرجو مدح مادحين، ولا ثناء مثنين،ولهذا خصَّ الله الغيب ومدح أهله.

- ولهذا قال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، ذكر المغفرة والأجر: غفران الذنوب وتحصيل الأجور.

❖ ثم قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: 13]،

- قدَّم الإسرار لأنَّه هو الغاية في الغيب عن النَّاس، لكن لا يخفى على الله شئ، سواء أسررت فالسِّر عنده علانية، ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ قد يَخفى العمل عن النَّاس، لكن إذا ظهر عرفوه، فإذا كان العامل مختفيًا غائبًا عن أعينهم، فلن يسمعوا كلامه ولن يعلموا مراده.
- أما عند الله تعالى فلا تَخفى عليه خافية، ولهذا قال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7]، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65].

فهذه الآية إذا استشعرها الإنسان زادت خشيته لله تعالى، فالإسرار بالقول وما تخفي الصدور يعلمه الله -عزَّ وجلَّ.

- ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فيه أن الإنسان دائمًا يتفقد داخله، يتفقد نيته، يتفقد مراده، فقد يُظهر الإنسان العمل فيكون إظهاره للعمل مِن أجل مَدح النَّاس، وقد يقول القول ويفعل المعروف من أجل مدح النَّاس، فالله تعالى يعلم خفايا النفوس، وما تخفي الصدور.

❖ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

- كيف يخفى على الله سرَّهم وأمورهم وهو الذي خلقهم، ودبَّر أمرهم! فهذا حجَّة لإبطال ما يَزعمون.
- ذَكَرَ بعضُ المفسرين أنَّ كفار العرب احتجُّوا واعترضوا على الوحي بأدلة عقليَّة، فجاء الجواب عليهم بأدلة عقليَّة تتضمَّن بطلان أدلتهم.

مثل: أنكروا البعث، قالوا: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: 49]، استبعدوا وجود البعث، هذا دليل عقلي،جاءت الآيات بما هم يعقلون بأنفسهم، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [فصلت: 39]، أنتم ترون الآن الأرض هامدة مُغْبرَّة، فيأتيها المطر -بإذن الله- ثم تبدأ تنبت أشجارها المتنوعة -بإذن الله- هذه لما كانت ميِّتة أحياها الله، إذن فإنَّ الذي أحياها لمحي الموتى، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ بلى يعلم.

❖ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

- قالوا من معاني اسم الله اللطيف: أن يُهيئ لعبده مِن الخير ويَسوقه إلى طُرق الخير مِن حيث لا يحتسب، وقد يبتليه بأمور مكروهة مِن لُطفه تعالى مآلها إلى خَير.
- ﴿الْخَبِيرُ﴾: أي: الخبير بأحوالكم وأموركم وجميع شؤونكم.

❖ قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: 15]،

- ذلولًا: مذللة، يُقال هذا بعير مُذلل، طريق مُذلل، أي: مُعبَّد، فذلولًا أي: مذللة لكم، منبسطة للزرع وللمشي، ثابتة بالجبال.
- ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، مناكب الرجل أي: أطرافه، وقيل: مناكب الأرض يعني أطراف الأرض.

ثم قال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ وهذا مِن رحمة الله، ذلل الأرض، وسهَّل المشي في مناكبها؛ لأن ذلك مِن أسباب الرزق.

❖ قوله: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾

- فيه ردٌّ على من عطَّل الأسباب، ولهذا يقولون: فعل الأسباب من التوكل على الله -عزَّ وجلَّ- فالإنسان يمشي في مناكبها متوكلاً على الله -جل وعلا.
- فالتوكل على الله لا يَمنع فعل الأسباب، وأعظم النَّاس توكلًا على الله مَن هُم؟ الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- وكانوا يفعلون الأسباب، هذا يَرعى الغنم، وهذا حدَّاد، وهذا نجَّار، وهذا كذا وهذا كذا، وهم أنبياء الله.

❖ قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15]،

- أي: إليه المرجع والمآل، فكل هذه أسباب، فمن حكمة الله أن ذلل الأرض، لتمشوا فيها، تسترزقوا فيها، تتكسَّبوا فيها، ثم مآلكم ومصيركم ومردُّكم إلى الله تعالى، ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

❖ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ﴾

- مِن رحمة الله تذليل الأرض، ومن رحمة الله تيسير المشي في مناكب الأرض، ومِن رحمة الله تسهيل الأسباب.
- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إيمان بالقلب، وتصديق باللسان، عمل القلب والجوارح.
- قال تعالى: ﴿آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، آمنا بالله، وتوكلنا عليه، وفوضنا أمورنا إليه، مع فعل الأسباب.
- قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ يا من ترك هذه الأمور ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، نحن أو مَن آمن واستقام وتوكل، أو مَن أعرضَ ولم يسمع، ولم يَعقل، سمع سمْعَ مجرد، أي: سمْعَ الأصوات والحروف، لكن ما سمعَ سمْعَ المريد للإجابة والطاعة.

❖ ثم قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾.

- لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، إذا مارت الأرض، واضطربت حركتها؛ وتعطَّلت منافعها التي ذكرها الله في حال تذليلها وانبساطها، لهذا ترون إذا وقع زلزال لثوانٍ معدودة؛ ما الذي يحصل من المهالك، ويحصل مِن الضرر والخوف؟

❖ قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

- "الحاصب": الرَّمل فيه حصباء حارة، الريح إذا هبت وزادت سرعتها تضر، فتخيَّل أنَّ معها حاصب مِن الرمل الحار، ماذا يكون؟ يشتد العذاب، وكل هذا يُؤدي ويدلُّ على توحيد الألوهيَّة، فهو القادر على هذه الأمور، ولا يقدر عليها إلا الله -عزَّ وجلَّ- ومِن ثَمَّ فلا يُعبد إلا هو.

❖ ثم ذكر الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾.

طير صافات: أي: بَسط الأجنحة.

- ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: بضم الأجنحة.
- ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ الطير ليس مِن السهولة إمساكه، الصيد شئ آخر، لكن صيده باليد مِن الصعوبة بمكان.
- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ كل هذا الذكر -ذكر الآيات، وذكر الحاصب، وذكر مَور الأرض- كلها مِن باب أن يعلم هؤلاء أنَّهم في عدم سماعهم لما قُرأ عليهم، وعدم عقلهم لما طُلب منهم، أنَّ هذا كله محادة لله تعالى.

❖ ثم قال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾

مهما كانت الجنود في كثرتها، وعتادها، وعدتها، فلن تُغنِ عَنكم مِن الله شيئًا.

- قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ ماذا تفعلون؟ لو شاء الله لقال لهم: كونوا ترابًا.
- قال تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ الغُرور إذا أَصَابَ الشخص أعماه عن الحق، وقد يعرف أنه حق، لكن الكِبر، ولهذا جاء في الحديث: «العزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني إزاري وردائي قصمته»[1].

فنستفيد أنَّه كلما زاد غرور الإنسان وعُجبه وكبره؛ كلما حُرم مِن أشياء كثيرة مِن الخير.

❖ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾

- فلو أنَّ الله تعالى أمسَك رزقه، فمَنع السماء مِن المطر، ومَنَعَ الأرض مِن الإنبات، ماذا يكون حال النَّاس؟
- لكن هؤلاء الكفَّار لجُّوا في عتوٍّ ونفور، هم يَعلمون هذه الحقائق، ولكن عنادهم وكبرهم أعماهم، ولهذا قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: 14]. فهُم يعرفون.

❖ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

- قال بعضهم: من يمشي مُكِبًّا هو: "أبو جهل"، ومَن يَمشي سويًّا هو: "الرسول صلى الله عليه وسلم" ولكن الصحيح أنَّها عامَّة، ﴿مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ ، أي" مَن تنكَّب طريق الحق، تشبيه شخص يسقط على وجهه ويحبو، وشخص يمشي على صراط مستقيم.

يقولون: مَن لَزم الصراط المستقيم في الدنيا، لزم الصراط المستقيم في قبره والآخرة. كيف ذلك؟

يُثبِّته الله بالقول الثابت في القبر، وفي الآخرة يُثبِّته الله تعالى بالقول الثَّابت، وينجِّيه مما يُهلك فيه غيره؛ وكما قيل: للعبد مقامان بين يدي الله تعالى: مقام في الدنيا، ومقام في الآخرة، فإذا أحسن المقام في الدنيا، أعانه الله على الإحسان في مقامه في الآخرة ووفقه وكافئه.

---

[1] صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(2898) ولفظه "العِزُّ إزاري والكِبْرياءُ رِدائي فمَن نازَعني شيئًا مِنهُما عذَّبتُه".

❖ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾

- هو الذي ذَرَأَكُمْ، بدأكم، أوجدكم من العدم، ﴿أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾.

هذه وسائل: العقل ليفهم مُراد الله تعالى، والسمع، والبصر ليرى، ومَن حُرِّم هذه الأمور مِن توظيفها في طاعة الله، فبعض النَّاس يسمع لكنَّه أبكم، وبعض النَّاس أبكم لكنَّه يسمع، فالذي يسمع كلام الله ولا يُطيع الله، فهذا الأبكمُ ومَن يُطيع الله فهو خير منه.

❖ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾،

- النَّاس أجناس، فهم الأبيض والأسود، الفقير والغني، السليم والمريض ولا تفاضل إلا بالتقوى، ومردُّ الجميع -المسلم والكافر- إلى الله تعالى، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.
- وكل هذه تؤكد على شأن التوحيد، أنَّ هذا الذي خلق وبرأ وذرأ ودبَّر الأرض، هذا هو توحيد الربوبية، والكفَّار أقرُّوا به، لكن من لازمِ توحيدِ الربوبيَّةِ توحيدَ الألوهيَّةِ، ولكنَّهم تناقضوا، ولهذا أنكر عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: 61] فأنى...، فأنى...، تكرار استفهام، لماذا؟

لأنَّ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وكذلك الألوهية يستلزم الربوبية، فهما متداخلان.

❖ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استفهام ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾،

- يعني متى يأتي هذا الوعد؟! هذا أمرُ غيبٍ، ولهذا الوعد إمَّا أن يكون عذابًا في الدنيا، أو في الآخرة يوم الحشر.
- هنا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ نستفيد أنَّ الإنسان لا يتكلم إلا بعلم، أمَّا الأمور الغيبية فأمرها إلى الله، ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ هذا الرسول صلى الله عليه وسلم. ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وظيفتي أنذركم وأبيِّن لكم.
- **الغيب أنواع:**
  - ❑ **النوع الأول:** غيبٌ استأثر الله تعالى به بعض خلقه، فأطلعهم عليه، وهم أنبياء الله ورسوله، ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26، 27]، لا يمكن أن يؤخذ بطريق آخر غير الوحي.
  - ❑ **النوع الثاني:** غيب يُدرك، جعل الله له أسبابًا يُدرك به، كالكسوف والخسوف يُدرك بالدراية والنظر.
- هناك غيبُ تخرُّصٍ وضلال، كالدعوى والكهنة والسَّحرة، وقُرَّاءِ الفنجان، وقرَّاءِ الكفِّ، هؤلاء دجَّالون كذَّابون أفَّاكون.

❖ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾،

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7]، فعلم وقوع العذاب والساعة، هذا عند رب العالمين.

❖ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾،

- هنا يخاطب الكفَّار، سواءً أَهلَكَنَا اللهُ أو رَحِمَنَا، لكن أنتم مَن يُنجيكم مِن عَذاب الله؟!
- قال تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التقدير: لا يُجيرهم أحد.
- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ نَحنُ أطعنا ربنا، وآمنا به، وتوكلنا عليه، وقد وعدنا وثبَّتنا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عندما تظهر الأمور، وتنكشف الحقائق.

❖ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾

- أي: بعيدًا غائرًا، فهذا الماء الذي جعله الله سببًا للحياة، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، لو غَارَ في الأرض وذَهَبَ، مَن يَأتي به؟ لو نَزَلَ عُمقًا؛ بل لو كان قريبًا وشاء الله ألا يَرتفع، ما ارتفع!

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.